مقدمة

جرت العادة، التى ما زالت ساريةً حتى اليوم بين العلماء المستنيرين، على كتابة ما توصلت إليه قريحتهم، أو وثَّقه آخرون من أمور يعدونها نافعة لتخرج إلى النور. وهناك العديد من أصحاب الخلق المتميز ممن ألَّفوا أعمالاً أخلاقية تحث النفس على الفضيلة، وهناك آخرون وضّحوا لأبناء جلدتهم أشياء غريبة وغير مألوفة عن طريق الترجمة. كما أنهم خلَّدوا أمورهم الخاصة لتبقى ماثلةً فى ذاكرة الأدب، وقد منحوا كلاً منها قدره، بوصفهم شهوداً على الحقيقة وقضاة لمعيار الجودة. فمن خلط هذا الاجتهاد بالالتزام بتحقيق المنفعة المشتركة، وتقييم هذه الأعمال الشهيرة وفقًا لقيمتها ووزنها، فى محاولة لتزويد من يخلفه بالحقيقة، فهو يستحق الثناء والتقدير لعمله نظراً لما بذله فيه من عاطفة.

كل شىء يسعى إلى الخلود بطريقته؛ فالعناصر التى تزودنا بها الطبيعة ولا تمتد إليها يد الإنسان تمتلك فى حد ذاتها قدرة على التجدد والعطاء، وعند مجابهتها للخطر تقوم الطبيعة نفسها بتجديدها ولإعطائها قالبًا جديداً تحتفظ فيه بخواصها. أما العناصر غير الطبيعية، والتى هى من صنع الإنسان، فإن افتقارها لصفة تجديد ذاتها - نظرًا لأن حياة الإنسان القصيرة لا تتيح له تلك الفرصة - فكان ضروريًا أن يقوم البشر أنفسهم، لرغبتهم فى تخليد أسمائهم فى الذاكرة، باللجوء إلى استخدام الآداب التى تقوم بتقديم أعمالهم فى المستقبل.

فالكلام المنطوق تقتصر مدة حياته على اللحظة التى يُنْطَق فيها، لاعتماده على الأحياء، وهو يتشابه فى ذلك مع الزمن الذى يذهب دونما رجعة. أما الآداب - التى تتكون من رموز جامدة - فهى تمتلك بداخلها روح الحياة وتهبها لكل ما يحويه

عـالم الإنســان، وذلك من خـلال تكـرارها فـى الذاكـرة وترديدها بـين البشـر لمنحـهـا الخلود. عندما تحين نهـاية العـالم سـتخلد الآداب أشـخـاصنا وكـلامنا وأفعـالنا على هيئتها الحالية، ونحن نرى أن ما قاله وفعله من عاشوا قديمًا لا يزال مـحفوظًا فى ذاكرة الحروف. وبما أن الأعمال تكون خالدة لأنها نتيجة العقل والإرادة - فـهما روحانيان يجعـلان الأعمال خالدة - فكان من الطبيعى أن نستخدمهما حتى يفيد منها الآخرون.

ما مصير تاريخ الكلدانيين والآشوريين والماديين(*) والفرس والإغريق والرومان ، لو لم يسـجله أمـثـال بيـروسـو كـالديو Beroso Caldeo، ومـيـتـاسـتـينيس Metástenes، وديودورو سيكولو Diodoro Sículo، وبروكوبيو Procopio، وتروغو بومبيو Trogo Pom-peyo، وهيرودوت Herodoto، وأليكارناسيو Halicarnasio، وخوستينو Justino، وتيتو ليفيو Tito Livio، وآخرون؟

إن الاهتمام بتوثيق كل الأمور بأمانة وحفظها فى ذاكرة الآداب، التى تحافظ على كل هذه الأعمال، هو شأن بالغ الأهمية فى بلدنا إسبانيا؛ فالإسبان يملؤهم التأهب والحماسة عندما يخوضون أحداثًا تستدعى اللجوء إلى فنون الحرب، بيد أنهم عادةً ما يُغْفِلون تدوين تلك الحوادث، وخوفًا من أن تضيع من الذاكرة أحداثٌ عديدة ومجيدة - بدأت تقع فى دائرة النسيان - فقد قمتُ بتجميع كل ما هو جدير بالحفظ، وضمَّناه فى الجزء الثانى من كتاب "وصف إفريقيا" Descripción de Africa، الذى خرج إلى النور فى عام ١٥٧٣ من ميلاد مخلص البشرية. وقد أهديناه إلى راعينا الملك الكاثوليكى السيد فيليبى الثانى Felipe II الذى أمر بوضعه فى مكتبته فى دير الإسكوريال؛ ثم واصلنا فيما بعد اضطلاعنا بمهنة التأريخ الجسيمة ، فقمنا بتأليف كتاب "تاريخ ثورة موريسكيى مملكة غرناطة وعقابهم" El Rebelión y castigo de los moriscos del reino de Granada بكل ما يحويه هذا الحدث من وقائع خالدة؛ وهو ما

(*) نسبة إلى ماداى فى إيران. (المترجمة)

أمكننا تحقيقه بسهولة عن غيره، نظراً لمشاركتنا في جيش صاحب الجلالة منذ البداية وحتى النهاية[1] بعد وضع خطة الكتاب وتوصيفها ، عرضناه على المجلس الأعلى بقشتالة، لكون العمل يتناول واحداً من أعظم انتصارات هذه المملكة؛ وقد نُشر بتصريح منه. وكان قد درسه – وقدَّم وصفًا له – العالم خوان دياث دى فوينمايور Juan Díaz de Fuenmayor عضو المجلس الملكى، وأخيراً من قبل السيد ريبادنيرا Rivadeneyra المستشار بمحكمة غرناطة الملكية فى أثناء تلك الحرب وعضو المجلس الأعلى؛ وقد عرضه على المجلس وجاءت الآراء لتصدر القرار بطباعته. بالنسبة إلىّ فإن هذا الكتاب ثمرة عمل بادرت به، وقلّدت فيه أمنا الأرض، وأديته بعناية واجتهاد يفوقا الذى ما كنت لأبذله لو عُهِدَ إلىّ القيام به. يدفعنى إلى ذلك التزام داخلى وفرح يكاد يصل إلى حد الحسد، بالنصر العظيم الذى حققه المسيحيون الأوفياء، وأُهْدِرَت من أجله دماؤهم واستشهدوا من أجل مخلصنا(*).

تم تقسيم العمل إلى عشرة كتب يتناول أولاها : وصف مملكة غرناطة وفتحها على يد الملكين الكاثوليكيين فيرناندو وإيسابيل، وتحويل المسلمين إلى ديننا الكاثوليكى المقدس، والتوتر الذى نشأ بسبب ذلك – مستعيناً فى ذلك بإيرناندو دى ريبيرا Hernando de Ribera، وألونسو دى بالنثيا Alonso de Palencia، وإيرناندو ديل بولغار Hernando del Pulgar، ولويس دى كارباخال Luis de Carvajal وآخرين؛ إضافةً إلى بعض الكتب العربية التى أمكننا التأكد من صدقها. أما الكتاب الثانى فيعرض الطرق التى اتبعها الأمراء الكاثوليك لحمل المتنصرين الجدد على ترك عاداتهم

(١) المؤلفون الإسبان الذين أرَّخوا للحرب ضد الموريسكيين –أورتادو دى ميندوثا وبيريث دى إيتا ومارمول– كانوا شهود عيان وإن اختلفت توجهاتهم. (المراجع)

(*) ينعت ميغيل أنخيل دى بونيس إيبارا فى كتابه "الموريسكيون فى الفكر التاريخى" كاتبنا كارباخال بالمؤرخ – الجندى، فهو باعتباره جنديا لا يستطيع التشكيك فى القرارات التى تتبناها السياسات الملكية، وهو ما دفعه إلى تبنى وجهة النظر الرسمية، كما أن مؤلّفه يفيض بمشاعر الكره تجاه الموريسكيين، وتخلو روايته من أى تأملات فلسفية حول قسوة الحرب. (المترجمة)

وشعائرهم الإسلامية. ويدور الكتاب الثالث حول الآراء المعارضة ذات الدافع المعنوى التى تبناها أولئك المسلمون لعدم ترك تلك الأشياء التى حفظت لهم ذكرى عقيدتهم، وكيف حاولوا استحداث بدع، عن طريق إعادة صياغة بعض التكهنات التى كانوا يؤمنون بها فى أثناء اعتناقهم الدين الإسلامى. يستعرض الكتاب الرابع بداية الثورة، ودخول منفذيها الرئيسيين إلى البيّازين معلنين إسلامهم، واختيارهم قائداً من أبناء جلدتهم فى البشرات، وقسوتهم البربرية فى أثناء إضرامهم النار فى الكنائس، والتعرض للقساوسة المقيمين فى قراهم. الكتاب الخامس يروى الحملة التى شنها ماركيز مونديخار Mondéjar ضد أولئك الثوار، ودخول ماركيز بلش Vélez من ناحية مملكة مرسية، وتقدم هذين الجيشين، ومجىء السيد خوان دى أوستريا Juan de Austria - شقيق مليكنا - إلى غرناطة، حيث استعان بسلطته لوضع نهاية لتلك الحرب المزعجة، وكيف أخذت الثورة فى التراجع. يبرز الكتاب السادس عدم الانضباط فى صفوف جيشنا[٢]، الذى أزعج خصومنا كثيراً، حتى أنه دفع بمعظمهم إلى العودة للجبال؛ وكيف أمر جلالة الملك بإعادة مسلمى البيازين وغوطة غرناطة إلى الداخل لطمأنتهم والتأكد من ولائهم. يروى الكتاب السابع دخول ماركيز بلش إلى البشرات، والانتصار على ابن أمية Aben Humeya فى بالور Valor، وموت هذا الطاغية، وتنصيب الثوار لابن عبو Aben Aboo خلفًا له، وتقدم جيش ماركيز بلش. أما الكتاب الثامن فيتناول الحملة التى قادها السيد خوان دى أوستريا بنفسه على مدينة غاليرا Galera المنيعة عبر نهرى المنصورة Almanzora وألمريّة Almería، ودخول دوق سيسا Sesa إلى البشرات، وطرد ما تبقى من مسلمين فى غوطة غرناطة. يبرز الكتاب التاسع المعاهدات التى أُبرمت لإخضاعهم بصورة عامة، وكذلك الحملة التى اضطلع بها السيد أنطونيو دى لونا Antonio de Luna على منطقة رندة Ronda الجبلية

(٢) لا يختلف المؤرخون الإسبان حول قسوة الجنود الإسبان وتجاوزهم لحدود الجندية فى أثناء الحرب ضد الموريسكيين، أما إدانة هذا المسلك فلم تكن محل إجماع. (المراجع)

لإخلائها ممن كانوا فيها. الكتاب العاشر يصف استسلام المسلمين فى جبال رندة المذكورة، والحملة التى خاضها السيد لويس دى ثونييغا إى ريكيسينيس Luis de Zúñiga y Requesenes القائد العام لمنطقة قشتالة ضد من أبوا الاستسلام فى البشرات، وكيفية سيرها، وطرد موريسكيي مملكة غرناطة المنهزمين، ووفاة ابن عبو، ونهاية تلك الحرب.

سيجد القارئ العديد من المميزات فى هذه الكتب العشرة، وإذا تراءى له أنها تفتقر إلى أمور يعلمها هو فليكن ذلك. لأن عملاً على هذا القدر من الشمول، يتناول كل تلك الأحداث التى دارت فى الكثير من الأماكن فى التوقيت نفسه، لابد أن يسد أى خلل بفطنة. دون أن تنقصنا الحكمة لمعرفة هذا، وإدراك أنه يُحْتَمَل أن يكون قد تم التغاضى عن عدد من الأمور[٣].

(٣) من الطبيعى أن يخطئ المؤلف إذا تناول عدة أحداث وقعت فى وقت واحد، ما نعيبه على مؤرخٍ ما هو عدم الموضوعية. (المراجع)